التمساح ورمت نفسها في احضاني. لم ارها بمثل الفتنة التي بدت بها آنذاك. كانت ثيابها ثياب عذراء، العطر يفوح من جسدها واثاث الحرير والستائر المزركشة تحف بها. آه! اما انا فكنت اقرب الى اللص او العيّار بثيابي الزرية الحقيرة. قالت لي:

- آه ياحبيبي، وددت لو حطمت كل شيء هنا، وددت لو احرقت الدار، وفزعت معك الى الوادي!.

ثم جاء الغنج والدلال. ثم الضحك والقهقهة! ثم الرقص والغناء! ثم تمزيق اطراف ثوبها. فاقت بقفزاتها ابرع القردة، ثم جاء التقليد الهزلي. تمادت في مرحها واسرفت. وما لبثت ان عادت جادة، وقالت:

- اما عن «العملية» فاسمع، ساغريه بالذهاب الى (رنده) حيث توجد اختي الراهبة! (وهنا ضحكت ثانية) وسنمر بموضع سأخبرك باسمه بعدئذ باغتوه واسلبوه كل شيء.. والخير كل الخير ان تدقوا عنقه.

ثم استطردت تقول وقد علا ثغرها ابتسامة شيطانية. ابتسامة يكره اي انسان محاكاتها فيها كانت ترتسم على وجهها احياناً: «لكن اتعلم ما يجب ان نفعل؟ دع الاعور يتقدمك تراجع انت قليلاً لان هذا (السرطان) شجاع ماهر في الرماية، وغدارتاه من احسن الانواع. هل فهمت؟

وختمت كلامها بضحكة داوية اقشعر لها بدني وانتفض كالطير قلت لها:

- انا اكره گارسيا كرهاً عميقاً. لكنه زميلي، وربما خلصتك منه يوماً ما. لكني سأسوي حسابي معه على طريقة بلادنا وحسب تقاليدنا. «انا غجري بالصدفة وسابقى نافاريا صميماً الى الابد في امور معينة»، كما يقول المثل النافاري.

اجابت:

- يا لك من احمق معتوه وغرّ مافون، انك لشبيه «بالقزم الذي يرى نفسه طويل القامة لان في وسعه ان يقذف ببصاقه الى مسافة بعيدة»[٥١] انت لاتحبني، اخرج من هنا واغرب عن وجهي.

لم استطع الخروج ووعدتها ان اعود الى رفاقي فنكمن للانكليزي واخبرتني من جهتها انها ستتمارض وتدعي انحراف الصحة حتى ساعة الرحيل الى (رنده). وبقيت بعد هذه المقابلة يومين آخرين، فيها زارتني مرتين في فندقي بجرأة لاتصدق، وبعدها غادرت جبل طارق الى المكان الذي تواعدنا عليه بعد ان تأكدت من ساعة مرور الانكليزي مع كارمن فوجدت في انتظاري گارسيا ودانكير هناك. قضينا ليلتنا في غابة، نصطلي على نار جمعنا حطبها من قشور الصنوبر. كانت النار قوية مغرية فدعوت گارسيا للعب الورق فلبى، وفي الشوط الثاني قلت له انه يغش في اللعب فضحك وسخر فقذفت بالورق في وجهه فقام الى

٥١- مثل غجري

غدارته فوضعت قدمي عليها وقلت:

- يقال عنك انك من امهر المطاعنين بالمدى في مالقة كلها افلا تجرب مهارتك معي؟

حاول دانكير ان يصلح ذات البين، لكنني اثنيت الى گارسيا، فصفعته مرتين او ثلاثاً واصبح الصلح مستحيلاً. ومنحه الغيظ اقداماً فسحب مديته وسحبت مديتي، وطلبنا من دانكير ان يفسح لنا مجالاً وان يكون حكماً ووجد من العبث ايقافنا فتقهقر. كان گارسيا متحفزاً كالقط حين يهم بالوثوب على الفأر، وامسك قبعته بيد وباليد الاخرى مدية مشرعة على الطريقة النافارية. وقفت قبالته تماماً ورفعت ساعدي الايسر، وساقي متقدمة الامام، ومديتي في وضع افقي مواز لفخدي الايمن، كنت اشعر بأني اوفر قوة من مارد جبار. هجم علي كالبرق الخاطف، فدرت على كعبي الايسر، فلم يجد امامه الا الهواء وانتهزت الفرصة فاغمدت مديتي في عنقه. غاص نصلها عميقاً حتى شعرت بقبضتي تلامس ذقنه فسحبت المدية بقوة حطمت النصل، وانتهى كل شيء.. خرج النصل تدفعه نافورة من الدم يفوق سمكها الزند. فصاح بي دانكير «ماذا فعلت؟» فاجبته:

- اصغ الي، ان الحياة لاتتسع لنا معاً. انا احب كارمن. انا اريد ان اكون فتاها الاوحد. ثم ان گارسيا وغد سافل، ولن انسى كيف صرع (ريمندادو) التاعس. لم يبق الا انا وانت وكلانا موفور القوة، فلنقسم يمين الصداقة في الموت وفي

وقفت قبالته تماماً ورفعت ساعدي الايسر
وساقي متقدمة الى الامام

الحياة.

فمد دانكير اليّ يده (وكان يبلغ من العمر الخمسين) ثم هتف قائلاً:

- قبح الله الحب ومشاكله! لو انك طلبت منه كارمن لباعك منك بريال! وها قد بقينا اثنين فكيف بانجاز عمل الغد؟

- دع الامر لي، فلم اعد بعد الان ابالي بالعالم كله!

وارينا گارسيا التراب. ونقلنا خيمتنا الى بقعة تبعد مائة خطوة. وفي اليوم التالي اقلبت كارمن وصاحبها الانكليزي برفقة خادم ومكارين اثنين. فقلت لدانكير: «ساصفي مسألة الانكليزي، وعليك بارهاب الباقي فهم عزل».

كان الانكليزي مقداماً شجاعاً، ولو لم تبعد كارمن ذراعه عني لاصابني في مقتل. وصفوة القول اني فزت ذلك اليوم بكارمن. نعيت لها زوجها وبشرتها بترملها، فاصغت الى القصة صامتة ثم عقبت بقولها:

- ستظل مأفوفاً؛ كان گارسيا قاتلك ومهارتك النافارية ان هي الا محض خرافة. لقد ارسل الى العالم الاخر الكثير ممن يفوقونك بأساً ولكن أجله حان ولات حين مناص وعندما يحين حينك ستقضي نحبك انت ايضاً.

قلت: «وأجلك انت ايضاً ان لم تبقي الزوجة المخلصة».

فقالت: «ماكتب في لوح القدر، لايمكن محوه. وكثيراً ما كشف لي فنجان القهوة بأننا سنموت معاً. لا غرو فمن زرع

حصد! ».

قالت هذا وضربت صحنا بصحن وتلك حركة كانت تقوم بها كلما ارادت طرد الافكار السوداء عنها.

ان المرء ياسيدي، لينسى نفسه حين يتحدث في شؤونه الخصوصية ومما لا اشك فيه ان الملل قد تسرب اليك لسماعك هذه التفاصيل، ولكني سافرغ عما قريب. عشنا معاً امداً طويلاً وضممت الينا بعض الرفاق ممن برهنوا على اخلاصهم اكثر من السابقين، وغرقنا الى الاذقان في اعمال التهريب، واقر أنا كنا نسطو على الناس احياناً عندما تلجئنا الضرورة القصوى ويعضنا الجوع بنابه ولتعلم اننا احياناً لم نكن نسيء معاملتهم بل نكتفي بسلبهم. سعدت مع كارمن عدة اشهر وكانت فائدتها العظمى لمشاريعنا تتجلى باسدائها النصح لنا وارشادنا الى العمليات الناجحة والصفقات المضمونة. واتخذت لها مالقة وقرطبة وغرناطة مقرات لاعمالها فكانت تنتقل بينها. وكانت اشارة مني كافية لتتركها وتجتمع بي في خان منعزل او خيمة مضروبة. لكنها آلمتني مرة واحدة واشغلت بالي بعض الشيء وكان ذلك في مالقة، اذ علمت انها اوقعت في حبائلها تاجراً غنياً. فخفت ان تمثل معه مأساة جبل طارق، فانطلقت لساعتي الى مالقة. غير مصغ الى كل ما ابداه دانكير ليثنيني عن طيتي. دخلتها في وضح النهار غير هياب ولا وجل، وشرعت اقص اثر (كارمن) حتى وجدتها فاخذتها معي وكانت بيننا مشادة حامية وصراحة

مرة. قالت:

- اتدري ان حبي لك اخذ يتضاءل منذ تزوجنا، انني لا اريد ان يضيق احد عليّ او أن يأمر. وما اتوق اليه الحرية، ان اكون مطلقة العقال اعمل ما اريد. فحذار ولا تدفعني الى عمل سيء العقبى حذار!، والا جاوزت الحد. وان ضايقتني لاجدن رجلاً يقضي عليك كما قضيت انت على الاعور.

اصلح (دانكير) ذات البين. وبعدها بزمن داهمنا سوء الحظ، ففجأنا الجنود، وقتل (دانكير) واثنان من العصبة، وقبض على آخرين، واصبت انا بجرح بليغ وكدت اقع في قبضة الجنود لولا جوادي. اخفيت نفسي في دغل انا وزميلي الوحيد الباقي وفي جسمي رصاصة والاعياء آخذ مني مأخذه. ما ان ترجلت حتى أغمي علي وخيل لي اني ميت لا محالة ميتة الارنب الجريح تحت الرتم. حملني رفيقي الى كهف معروف عندنا وانطلق يبحث عن كارمن فجاء بها من غرناطة حالاً. وبقيت زهاء خمسة عشر يوماً لاتفارقني لحظة ولم يغمض لها جفن. كانت تمرضني وتقضي حاجتي بحذق واخلاص لا تبديه حبيبة لحبيبها المصطفى. ولما استطعت الوقوف على قدمي، نقلتني الى غرناطة بتكتم عظيم (ان الغجر يجدون مكمنا يختفون فيه اينما ارادوا) امضيت ستة اسابيع في دار ليس بينها وبين دار الحاكم الذي يتعقبني اكثر من بابين! ولقد ابصرته اكثر من مرة يسير وانا متوار خلف سجف. واخيراً اعادت اليّ قواي، وكنت اديم التفكير في اثناء مرضي في

حالي، فعزمت على اصلاح مسلكي، وفاتحت كارمن في امر النزوح الى العالم الجديد. وفي أمر تقويم سبلنا المعوجة.فضحكت وقالت:

- اننا لم نخلق لزرع الخسّ والكرنب. لقد حكم القدر علينا ان نعيش على حساب الاغنياء. هيا لقد دبرت لك عملاً مع «ناثان بن يوسف» بجبل طارق. فبضائعه القطنية تنتظرك لتهريبها الى داخل اسبانيا. انه يعلم بانك حي، واهل للاعتماد كثيراً. ماذا سيقول عملاؤنا في جبل طارق اذا اخلفت وعدك؟

خضعت لهذا الاغراء ومضيت سادراً في حياتي الشائنة.

لاحظت حين وجودي في غرناطة ان كارمن تتردد الى حفلات مصارعة الثيران المقامة في المدينة. فاذا عادت اخذت تلهج ببراعة مصارع اسمه (لوكاس). انها عرفت اسم جواده وكم كلفه صداره الموشى من مال. فلم اكترث بما كانت تهرف لكن (خوانيتو) زميلي الجديد اخبرني بعد ايام انه رأى كارمن برفقة لوكاس في متجر (زاكاتين) فآلمني ذلك وسألت كارمن عن سبب معرفتها بالمصارع وكيف كان ذلك فاجابت:

- انه يصلح للاتفاق معه على صفقة، «والنهر الصاخب اما يكون سبب ثورته الماء واما الحصباء»[٥٢]. وهذا الفتى ربح

٥٢- مثل غجري.

مائتي جنيه ذهباً من حلبة المصارعة. فاختر بين الحصول على ماله او ضمه الى عصبتنا. فهو فارس بارع ثبت الجنان. ان فلاناً وفلاناً قتلا، وعليك ان تجد من يحل محلها. فماذا لو ضممته اليك؟

فصحت بها:

- لست بحاجة الى نقوده، وانا أمنعك من الاتصال به.

- حذار، إن منعني احد عن شيء، فاعلم ان ذاك الشيء سيتم فوراً.

ولحسن الحظ رحل المصارع الى مالقة وشغلني أمر تهريب القطن لحساب اليهودي، وتراكمت علينا الاشغال انا وكارمن وتشعبت فنسيت (لوكاس) وربما نسيته هي الاخرى (لزمن قصير فقط)، وفي تلك الاثناء قابلتك ياسنيور اولاً قريباً من «مونتلا» ثم بقرطبة. ولن احدثك عن مقابلتنا الاخيرة فانت تذكرها خيراً مني، فقد سرقت كارمن ساعتك، وكانت تطمع في مالك، وخصوصاً في الخاتم الذي يزين اصبعك، فقد حكمت بانه خاتم سحري، وانها تود اقتناءه باي ثمن كان فجرت بيننا مشادة عنيفة فضربتها. فشحب وجهها واجهشت بالبكاء. وكانت اول مرة اراها تبكي فآلمني مرآها كثيراً وحزّ في نفسي فاعتذرت واستغفرت، ولكن الكآبة لازمتها طول النهار، ولما رحلت الى «مونتلا» لم تقبلّني، وحين زارتني بعد ثلاثة ايام، كان قلبي مثقلاً بالهم في حين بدت مفترة الثغر، متوثبة الروح كالقبرة.

تناسينا كل شيء، وقضينا يومين كأننا عاشقين مستجدين. وقبيل افتراقنا قالت لي:

-سيكون في قرطبة عيد، وسأحضره، سأرقب الرجال الممتلىء الجيوب واخبرك.

تركتها تذهب، ولما صرت وحدي، شرعت افكر بالعيد، وفي التغيير العظيم الذي لمسته في تصرفات كارمن، فقلت لنفسي: «لاشك وانها ثأرت لنفسها مني ما دامت هي البادئة في الصلح» وقال لي احد الفلاحين ان قرطبة ستشهد في العيد مصارعة ثيران. وهنا غلى دمي في عروقي وانطلقت لساعتي الى المدينة كمن به جنّة. وهناك اشار احدهم بيده الى لوكاس ولمحت كارمن جالسة في مكان ملاصق للحاجز. وبمجرد نظرة خاطفة صارت شكوكي يقيناً.

ابدى لوكاس مع الثور الاول فروسية وبراعة لاتوصفان كما توقعت تماماً فانه نزع الشريط الحريري[٥٣] من جسم الثور بحركة سريعة جداً، وقدمه الى كارمن فضفرته في شعرها حالاً. وهاجمه الثور الثاني كأنه يريد ثأرى، فالقاه على الارض واتبعه بالجواد وجثم فوقهما بحثت عن كارمن فلم اجدها في مكانها. ولما كان الخروج من الملعب في تلك الساعة ضرباً من المحال، فقد الجئت

٥٣- تسمى بالاسبانية «لا دايفيزا La divisa» وهي عقدة من شريط حريري تشبه الوانها الوان المقود الذي يسحب الثور، تثبت بكلاب حديدي على جلد الثور ويعتبر نزعها وتقديمها الى امرأة، من اعلى درجات الفروسية.(م)